

## فعالية القيم في العملية التربوية: رؤية سوسولوجية

### ملخص

تسعى الأمم على اختلاف توجهاتها السياسية والإقتصادية والثقافية إلى العناية دوماً بإصلاح حال الناشئين بالتهذيب والتوجيه ولاشك أن التربية كعملية إجتماعية ثقافية تستلهم قوتها من فعالية القيم وتستمد ضرورتها من ضرورة الوجود الإجتماعي للأفراد باعتبارهم حملة ثقافة المجتمع. وعليه فإن هذه الورقة تعالج الارتباط الوظيفي بين القيم كمحدد للسلوك الإنساني والتربية باعتبارها ضرورة إجتماعية

د. حميد خروف

معهد علم الاجتماع  
جامعة منتوري، قسنطينة

يعد تناول موضوع القيم والتربية من بين أكثر الموضوعات التي شددت اهتمام المشتغلين بمختلف تخصصات العلوم السلوكية . وغير خاف على الدارس في مجال علم الاجتماع التربوي أهمية العلاقة التبادلية (الوظيفية) بين التربية كعملية إجتماعية والقيم باعتبارها إحدى محددات السلوك الإجتماعي.

ومن هذا المنطلق بدأ مفهوم القيم يشيع في الكتابات السوسولوجية، فأصبح موضوعاً للبحث والتحليل، القصد منه كشف ابعاد القيم وتأثيراتها المختلفة في الحياة الإجتماعية والانماط السلوكية للأفراد والجماعات. ومن ثم يصبح من الأهمية بمكان تفهم نسق القيم السائد في المجتمع كمدخل علمي وواقعي للبحث في العلاقات التبادلية بين الانماط السلوكية واهداف عملية التربية، وعليه فإن القيم تشكل عنصراً بارزاً في بنية ثقافة أي مجتمع إنساني، فهي تمثل الإطار المرجعي للسلوك الفردي والجماعي، وبالتالي فإن العملية التربوية التي تسود أي مجتمع إنما تحتاج إلى توافق الأنماط السلوكية والقيم، وكذلك تكامل الأدوار فيما بين مختلف دوائر المؤسسات التربوية ضمن عملية إجتماعية شاملة هي التنمية. وضمن هذا السياق سنحاول التعرض الى العناصر الآتية:

### Résumé

Les nations, dans leur globalité, quelles que soient leurs tendances politiques et économiques, s'efforcent d'assurer l'éducation de leurs populations .

Dans cet article, nous soulèverons l'interrogation suivante: l'éducation, en tant que processus socio- culturel, s'inspire-t-elle des valeurs sociales ?

En réponse à cette interrogation, nous essayerons de mettre en relief la corrélation fonctionnelle qui existe entre valeurs, en tant que déterminant du comportement humain, et l'éducation comme nécessité sociale.

## أولا - مفهوم القيم:

لاشك انه عندما يتصدى الدارس لموضوع القيم تزدهم المعاني في صدره ، فلا يدري أيها يختار، لذلك يكشف التراث الخاص بدراسة القيم مدى اهتمام العديد من رواد الفكر والفلسفة بتحليل طبيعتها والوقوف على مدلولها، الا ان مفهوم القيمة يعد من بين اكثر مفاهيم العلوم الإجتماعية غموضا وتعقيدا ويعود هذا الإبهام الى كون مصطلح القيم مرتبط بالتراث الفلسفي من جهة ، كما يمثل نقطة تقاطع لدى مجموعة من العلوم الاجتماعية والمعارف من جهة أخرى (1) في هذا الإطار يشير ( وليامز R. H. WILLIAMS) الى ذلك بقوله " للقيمة مفهوم واسع وشامل يتميز بجذب الانتباه وذلك لوجود عناصر القيمة في كل انواع السلوكيات" (2).

ولتحليل معاني القيمة يلاحظ أن عامة الناس يستخدمونها في أحاديثهم ومناقشتهم اليومية إستخداما مطاطا وبمعان متعددة ومتباينة اما الفلاسفة والعلماء فقد اختلفوا في استعمالهم للقيم وتعريفهم لها اختلافا واسعا ابتداء من المستوى الاجرائي حتى مستوى ما وراء النظرية ففي الفلسفة مثلا نجد تباينا لدى الفلاسفة من حيث تحديد مدلول القيم ومعناها ، اذ كانوا يعبرون عن مضمونها في مفهومات مجردة كالخير الفضيلة، الجمال، الخ.. وكانت آراؤهم في هذا الصدد تصطبغ بصبغة ميتافيزيقية ، لا ترتبط بمكان او زمان معينين(3) وفي هذا المعنى يرى (لاند LALANDE ) انه من الصعب تحديد معنى حقيقي للقيمة لانها تدل غالبا على تصور ديناميكي يمر من الواقع الى الحق ومن المرغوب فيه الى القابل للرغبة فيه (4) أما في مجال العلوم السلوكية فينظر الى القيم على انها تنظيمات لاحكام عقلية انفعالية مصممة نحو الاشخاص والاشياء والمعاني التي توجه رغباتنا واتجاهاتنا نحوها ، فالقيمة مفهوم مجرد ضمنى غالبا ما يعبر عن الفضل او الامتياز ودرجة التفضيل التي ترتبط بالاشخاص أو الاشياء أو المعاني (5).

ان الباحث الذي يهتم بدراسة القيم، فانه حينما يحاول تحديد مدلولها، يجد نفسه امام معان متعددة ومضامين مختلفة، ومع ذلك فان التراث الخاص بموضوع القيم يشير الى معنيين رئيسيين، احد هذين المعنيين يتضح حينما نقول: " ان شخصا ما لديه قيمة معينة "، فيلاحظ هنا اننا نصف قيمة يحتضنها شخص معين او يتبناها ويفصح عنها بصور مختلفة اما المعنى الاخر فهو يبدو جليا حينما نقول: " ان موضوعا ما له قيمة " وهكذا فعند دراسة القيم وتحليل مدلولها يمكن ان نحدد في التراث الخاص بالقيم الاجتماعية مدخلين رئيسيين: يتناول احدهما مسألة القيم من وجهة نظر الموضوعات وما تنطوي عليه من قيمة اما المدخل الاخر فانه يركز على دراسة القيم كما يتبناها الاشخاص (6).

وبناء عليه فان المتأمل فيما قدم من تعريفات للقيم، يجد ان هناك قدرا هائلا من الاختلافات والتباين في وجهات النظر بين المشتغلين بالعلوم السلوكية حول الاحاطة بتعريف مفهوم القيم والمؤشرات التي يمكن الاحتكام اليها في دراستها وتحليل طبيعتها . ومهما يكن من امر هذا الاختلاف ، فان هذه التعاريف يمكن ان تنتظم في فئة من الفئات التالية:

- 1 - القيم من خلال مؤشرات الاتجاهات .
- 2 - القيم من خلال مؤشر الانشطة السلوكية .

- 3 - القيم من خلال مؤشري الاتجاهات والانشطة السلوكية .
- 4 - القيم من خلال التصريح المباشر بها .
- 5 - القيم كاشياء واهتمامات وتفضيلات .

الا أن الاعتماد على مؤشر واحد لا يعكس بالضرورة طبيعة القيم التي يعتنقها الفرد ، اذ ان كثيرا من الانماط السلوكية الي يصدرها الفرد وهو بصدد التعامل مع المواقف الاجتماعية المختلفة لا تبين ما يتمثله هذا الفرد بالفعل من قيم جديرة بالاهتمام ، وانما تعكس ما حددته ثقافة المجتمع ، أي المرغوب فيه اجتماعيا ، كما ان كثيرا ما يتسق السلوك الذي يقوم به الفرد مع طبيعة الادوار التي يمارسها وما تفرض عليه من انماط سلوكية متميزة اكثر من اتساقه مع ما يتمثله من قيم خاصة به ، الامر الذي ادى بالعالم ( لافينسون LAVINSON ) الى القول : ليس هناك خط فاصل يمكن اقامته بين تأثير توقعات الدور الاجتماعي وبين تأثير القوة المباشرة للقيم على ما يصدره الافراد من سلوكيات (7) . ويحدد ( كراثوهيل ) وزملاؤه ثلاثة مستويات للقيمة يدل كل منها على مرحلة من مراحل الاستيعاب، وهذه المستويات هي :

- أ - مستوى التقبل .
  - ب - مستوى التفضيل .
  - ج - مستوى الالتزام .
- ويمكن التمييز بين هذه المستويات الثلاثة اجرائيا في ضوء الوقت والنشاط الذي يبذله الفرد حول موضوع القيمة ، وان مقدار هذا الجهد والوقت يتزايد في كل مستوى عن المستوى السابق ، فهو في مستوى التفضيل اعلى منه في مستوى التقبل وقل منه في مستوى الالتزام (8) .

وفي ضوء ذلك يمكن النظر الى القيم بانها مجموعة من المعتقدات الصريحة او الضمنية التي تحدث في سياق اجتماعي وثقافي متميز ، الامر الذي يضيف عليها هوية ترتبط بطبيعة البناء الاجتماعي وتحدد ماهو مرغوب فيه او عنه اجتماعيا .. وتتسم القيم بالدينامية والاستمرار النسبي فتنشأ عن التفاعل بين الافراد والواقع الاجتماعي المحيط بهم ، وتفصح هذه القيم عن نفسها من خلال التفضيل والاختيار بين البدائل المتاحة وتتحدد في الانماط السلوكية المختلفة للافراد وفي اهتماماتهم واتجاهاتهم

#### ثانيا- تصنيف القيم وخصائصها:

لا شك ان القيم تعد من المفاهيم الاساسية في كافة العلوم الانسانية اذ تستمد أهميتها لما لها من خصائص نفسية واجتماعية، فضلا عن كونها تنسم بالعمومية بوصفها من محددات السلوك الانساني، فهي التي تحرك الافراد والجماعات نحو أهدافهم، كما انها في الوقت ذاته تعتبر مرجعا للحكم على سلوكياتهم المختلفة .  
وتشترك القيم في كافة انماط التفاعل، بل انها تعد ضمان استمرارية التفاعل بين افراد المجتمع وجماعته لانها توفر قدرا من التوقعات التي يتفاهمون على اساسها ويخضعون تصرفاتهم لها ، ويعتزون بالحفاظ عليها والدفاع عنها ونبذ المشوه لانماطها

، فهي تعتبر اطارا مرجعيا لسلوك الفرد في المواقف المختلفة اذ تحركه في اختيار نوع السلوك واهداف الحياة كما تحدد له ما يجب ان يقبله (9) .

لذا فان البحث الاجتماعي لموضوع القيم يثير اهمية طرح مسالة تصنيف القيم، ولقد كان للاختلافات الجوهرية في تحديد مفهوم القيم وتفسير طبيعتها ان انعكس ايضا على المهتمين بدراستها عند محاولة تصنيفها فهناك من يرى انه من العسير وضع تصنيف محدد للقيم وهذا يعود الى الفشل في توضيح الاختلافات الموجودة بين مختلف انماط القيم نتيجة للتعقيدات المتضمنة في مفهومها، الامر الذي ادى بالبعض إلى تجنب تصنيفها، وذلك لعدم التمكن من الاحاطة بكل الأنماط القيمية التي يمتثلها الافراد والمجتمع، وفي هذا المعنى يقول (سورلي "surly") " من المستحيل ان تكون هناك قاعدة يمكن على اساسها تحديد كل انواع القيم(10) .

لكن هذا الراي لا يقره البعض الاخر من المهتمين بدراسة القيم حتى وان كان موضوع تصنيف القيم يبدو للقارئ كمسالة اكااديمية ، ذلك انه من الصعوبة بمكان القيام بدراسة القيم ميدانيا دون اللجوء الى تصنيفها ولذا فقد اهتم الكثيرون من المشتغلين بالعلوم الاجتماعية بهذه المسالة وقد اصبح تراث هذه العلوم يتوفر على قدر من محاولات تصنيف القيم وان هذا التنوع في التصنيفات يعود بالدرجة الاولى الى الاختلاف في وجهات النظر والتباين في المداخل الفكرية لذا فان تصنيف القيم يعتمد على مبادئ تصنيفيه مختلفة ترتبط بالضرورة بطبيعة المداخل المتباينة التحليل. ومهما يكن من امر ، فانه يمكننا القاء الضوء على بعض نماذج التصنيف المختلفة في التراث النظري لهذا يمكن استخلاص عدة محاولات لتصنيف القيم نعرض لاهمها فيما يلي:

هناك من العلماء من صنف القيم وفقا للاشياء موضوع البحث او وفقا لطبيعة المنفعة او عن طريق العلاقة بين الممثل والمستفيد، او وفقا للعلاقة التي تضيفها القيم نفسها على الاخرين، وهنا يرى بعض علماء الاجتماع ان القيم ليست متساوية في الاهمية، أي لها درجات مختلفة من التأثير في الفعل، وبالتالي فهي تقع في ترتيبات هرمية، ومن ثم فان تصنيفها يخضع الى طرق مختلفة، وكل طريقة تعكس اهمية خاصة لبعض الصفات او الجوانب القيمية (11) وهناك من العلماء من قدم تصنيفا للقيم مستندا الى طبيعتها وخصائصها كتصنيف (جوليتلي Golightly) الذي ميز بين القيم الاساسية والقيم الفرعية، وتصنيف ( كيرت لوريس C . Luris) حين صنف القيم الى جوهرية وطارئة، اما (كلاكهون KLUCKHON) فقد قدم تصنيفا يشير الى وجود قيم عامة في المجتمع ككل وقيم خاصة بجماعات اجتماعية معينة ، وهذا التصنيف يستند الى معيار درجة انتشار القيم في المجتمع كما تم تصنيف القيم بالاستناد الى اتجاهها المرتبط بالنمط البنائي للمجتمع كما فعل ( روبرت ردفيلد R.Redfield) عندما ميز القيم على اساس نوع المجتمع: الشعبي القديم الذي تسوده القيم التقليدية المحافظة، والمجتمع الحضري لذي تسوده القيم العقلية العلمانية ، كما يوجد هناك من العلماء من صنف القيم بناء على وظائفها الاجتماعية، أي ربط كل قيمة بنظام اجتماعي معين كما فعل ( اميل دوركايم ) و ( ريدير D . Reder )، وغيرهما من انصار الاتجاه البنائي الوظيفي في علم الاجتماع

(12).

كما قدم ( نيكولاس ريتشر N . RESHER ) محاولة تتضمن عرض مختلف اسس تصنيف القيم على النحو التالي(13):

أ - التصنيف على اساس القيمة : وهنا يتركز الاهتمام على الاشخاص الذين يتبنون قيمة معينة ، أي ان هذا التصنيف لايهتم بالقيم في ذاتها من حيث محتواها او موضوعها / وانما يسلم بوجود بعض القيم كمعطيات، ومن ثم يصبح التساؤل الرئيسي من هم أولئك الذين يحتضنون قيمة معينة وما هي خصائصهم

ب -التصنيف في ضوء موضوعات القيم: أي ان هذا التصنيف يقوم على اساس طبيعة الموضوعات او الظواهر التي تحضى بالتقويم

ج - التصنيف على اساس الفائدة او المنفعة: فالقيم ترتبط عادة بفائدة او منفعة يحققها أولئك الذين يحتضنونها، سواء كانت هذه المنفعة تتعلق باشباع حاجة او اهتمام او مصلحة ، ومن ثم يجب البدء بتصنيف الفوائد او المنافع الخاصة اولا وان افضل تصنيف في هذا الصدد هو تصنيف الحاجات والرغبات والاهتمامات الاساسية للانسان.

د - التصنيف على اساس الاغراض او الاهداف : ويقصد بذلك تصنيف القيم وفقا للغرض الانساني النوعي الخاص الذي يتحقق بوجوده قيمة معينة

هـ - التصنيف على اساس العلاقة بين محتضن القيمة وبين الفائدة: وهنا يلاحظ عموما ان الشخص يحتضن قيمة ما لانه يرى في وجودها فائدة معينة بالنسبة له او بالنسبة للآخرين ، وهذا ما يعرف باسم توجهات القيم ويمكن الحصول في هذه الحالة على تصنيف من النوع الاتي:

1- القيم ذات التوجه الشخصي ( الذاتي ) Self oriented values :  
النجاح - الراحة - الخصوصية

2- القيم ذات التوجه نحو الآخرين Other oriented values :

أ - القيم ذات التوجه الجماعي الداخلي مثل:

- القيم الاسرية ( التوجه نحو الاسرة ).

- القيم المهنية ( التوجه نحو المهنة ).

- القيم القومية ( الاعتداد بالقومية ).

- القيم المجتمعية ( العدالة الاجتماعية )

ب - القيم ذات التوجه الانساني: مثل القيم الجمالية او القيم الانسانية بصفة عامة.

و - التصنيف على اساس العلاقة بين القيم ذاتها: يعتمد هذا التصنيف على مدى ارتباط القيم بعضها وبعض، فهذا النوع من التصنيف يثير تدرج القيم وفقا لمدى عموميتها، أي ان هناك ما يسمى بالقيم الوسيطة او الوسيلية واخرى لذاتها او ما يسمى بالقيم الغائبة، ويعرض روبين وليامز R . WILIAMS وصفا للقيم الأساسية في الممارسة على اساس أنها:

- عناصر تجريدية اكثر من ان تكون ملموسة تعبر عن ردود افعال انفعالية، وتظهر من خلال تصرف الفرد في المواقف الحالية.

- تؤثر بايجاد الحافز او الدافع نحو الفعل او الاداء.

-ان دور القيم لا يقتصر على مجرد تحديد اهداف السلوك او الفعل ، ولكنها بالاضافة الى ذلك تمثل الاطار الذي من خلاله ينتقي الفرد اهدافه.

- ان اهمية القيم ليست نسبية او تمثل جزءا من الاهتمام (14).

ان المتتبع لتراث علم الاجتماع في مجال دراسة القيم بإمكانه ان يجد تباينا بين نظرياته والمداخل الفكرية لكل نظرية منها، وهذا الامر ترتب عليه تنوع في تحليل طبيعة القيم وتصنيفها ويجدر بالذكر ان التصنيفات السابقة لها اهميتها في تحليل القيم ودراستها امبريقيا واذا كانت أي دراسة تنطلق من كون القيم هي مستوى او معيار للانتقاء من بين بدائل او ممكنات اجتماعية للشخص في الموقف الاجتماعي، أي معرفة التوجهات القيمة المحددة لسلوك الفرد، فانه ينبغي تحليل القيم وتصنيفها اعتمادا على بعدها وعلى هذا الاساس، فقد حدد المهتمون بدراسة القيم مجموعة من الابعاد يمكن ان يتم في ضوءها تقديم تصنيفات معينة لها.

وهذه الابعاد هي كالتالي (15):

- 1 - بعد الشدة.
- 2 - بعد الدوام ( الاستمرارية ).
- 3 - بعد العمومية ( الحجم ).
- 4 - بعد الوضوح ( الانسجام ).
- 5 - بعد المقصد ( الطول ).
- 6 - بعد المحتوى ( النوعية ).

ان تحليل بعد المحتوى يشير الى انه يتضمن ستة أنواع من القيم كما يرى (سبرانجر SPENGER)، تتمثل في القيم: الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية، الدينية، النظرية، الجمالية. كما لا يعني ان افراد المجتمع يتوزعون تبعا لهذه الانواع الستة من القيم توزيعا مفردا، بل ينبغي الإشارة الى ان هذه القيم تعد مبادئ اساسية في نظره، والتي يمكن ان توجه مجرى الفعل وتغييره بالنسبة للأفراد والمجتمعات وهذه الانواع من القيم تتحكم في علاقات الافراد وتحدد ممارستهم في مختلف الانشطة وميادين الحياة، وبالتالي فانها ( أي القيم ) توجد مجتمعة في كل فرد، غير انها تتباين في تدرجها من فرد الى اخر بحسب قوتها وضعفها داخل نفسية الفرد والمحيط الذي يعيش فيه.

ان عرض هذه النماذج من تصنيف القيم له اهميته في دراستها وتحليل طبيعتها، ومعرفة التوجهات القيمة لدى الافراد، كما أن النظر الى القيم كمحدد للتفضيلات الاجتماعية بالنسبة للأفراد والجماعات، بالاضافة الى الاخذ بالبعد النوعي للقيم من جهة والعلاقة بين محتضن القيمة وبين الفائدة من جهة اخرى يمكن الباحث من الدراسة الواقعية للقيم نظرا لـ:

- الصفة الدينامية التاريخية للقيم من حيث ان هذه القيم تتشكل للتعبير عن واقع اجتماعي في مرحلة تاريخية معينة وبالتالي تتطور لتعكس عمليات التحول الاجتماعي.
- الصفة الطباقية للقيم، ذلك ان هذه القيم لا تنشأ من فراغ، انما هي نتاج العلاقات التفاعلية بين الافراد في المجتمع ومختلف النظم الاجتماعية السائدة فيه، وبالتالي فالقيم

تعكس المصالح الاجتماعية للأفراد في مرحلة زمنية معينة، كما انها تفقد تأثيرها بتغير هذه المصالح وتبدلها وعلى هذا الاساس فانه يمكن ان تحدد للقيم ثلاثة ابعاد من حيث انها:

- مفهوم يحتوي على عنصر معرفي.
- كونها مرغوب فيها ، فهي تحتوي على عنصر انفعالي.
- من حيث تأثيرها في انتقاء اساليب العمل ، فهي تحتوي على عنصر نزوعي (16).

### ثالثا- رؤية سوسولوجية في فهم القيم وفعاليتها

يتضح من خلال التحليلات السابقة لمفهوم القيم حقيقة مهمة مؤداها ان القيم تعد محددًا جوهريًا من محددات السلوك الانساني اذ تمس العلاقات الانسانية بكافة صورها. وتعتبر القيم في هذا المجال من الوسائل المميزة لانماط الحياة الاجتماعية ، فهي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بدوافع السلوك واهداف الافراد.

ولعل قيام الفلاسفة والعلماء بدراسة موضوع القيم يعكس الاهتمام الكبير بتحليل طبيعتها ، ذلك لانها تتصل بكل مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية والجمالية للأفراد والجماعات، وانها تلعب دورًا بارزًا في تحديد جوانب السلوك وفي تقويم العملية التربوية ومن هذا المنطلق كانت دراسة القيم ومازالت محور خلاف اساسي بين المدارس والاتجاهات الفكرية ، الامر الذي ادى بفوج مرينج Vong Mering الى القول بانها في ميدان القيم نجد جدبا في النظريات المتناسقة وخصبا في النظريات المتضاربة، ولعل السبب في هذا هو الخلط بين مجا:

- يتصل الاول منهما بالممارسة اليومية، حيث تشارك في صوغها شؤون الحياة المعتادة
- أما الثاني فهو مجال الدراسة النظرية، حيث تتاولها بالبحث الفلسفة ومختلف العلوم الاجتماعية بطرق متباينة (17).

ولهذا ليس ثمة تصنيف موحد لموقف الفلاسفة والعلماء من نظرية القيمة ومهما يكن من امر هذا الخلاف، فانه يمكن التمييز بين الباحثين انطلاقًا من المنظور الذي يعتمده الواحد منهم في دراسة القيم سواء من حيث تفسير طبيعتها أو معرفة مصدرها أو كيفية معالجتها وتحليل فعاليتها. معالجتها . الا اننا في هذا المقام سنركز على ابراز الرؤية السوسولوجية في فهم القيم وفعاليتها .

لقد طرحت قضية سوسولوجية القيمة كاحد المحاور الرئيسية التي انشغل بدراستها العديد من الباحثين الاجتماعيين بحيث تجسد ذلك في كتابات الكثير من علماء الاجتماع ايمانًا منهم بانها توجد علاقة وظيفية بين القيمة ( باعتبارها ظاهرة اجتماعية او عنصر مشترك في تركيب البناء الاجتماعي ) وسائر الظواهر الاجتماعية الاخرى السائدة داخل هذا البناء الاجتماعي للمجتمع.

وإذا حللنا رؤى المدارس المختلفة لعلم الاجتماع الغربي لوجدنا ظهور استخدام مفهوم القيمة ضمنا او صراحة في كافة المدارس بداية من المدرسة الفرنسية وخاصة عند (اميل دوركايم E . Durkheim) الذي حدد مكونات الظاهرة الاجتماعية بانها نظم اجتماعية لها صفة الضغط والالزام، كما انها تتكون من الرموز الاجتماعية والقيم

والافكار والمثل، وتأكيده كذلك على مفهوم الضمير الجمعي في تحديد الضبط داخل المجتمع (18).

اما المدرسة الانجليزية وعلى راسها ( هيربرت سبرنسر H. SPENCER ) وما طرأ على النظرية العضوية من تغييرات ادت الى ظهور نظرية التطور التي تؤمن في اساسها بالتعدل في نسق التوقعات بين الوحدات، ولو تناولنا هذا المفهوم بالتحليل لوجدنا ان نسق التوقعات لا بد وان تكون القيم السائدة في المجتمع هي ضمن الاعتبارات الاساسية في تحديد هذه التوقعات (19).

في حين يلاحظ ان المدرسة الالمانية وعلى رأسها ( ماكس فيبر M. WEBER ) كان لها اهتمام باثر القيم وتدخلها في تحديد مسار الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . بينما اهتدى اليها كل من (ماكس شيللر M . SHELLER و كارل منهيم K . Manheim) ضمن السياق السوسيو تاريخي .

اما المدرسة الامريكية، ولناخذ عنها على سبيل المثال لا الحصر كل من (سوروكين P . Sorokin وتالكوت بارسونز T . PARSONS) فسوف نجد ان الاول منهما حاول الوصول الى تعميمات عن التغير الاجتماعي والثقافي من خلال تاريخ الانسانية كمؤشر محدد للقيم، ويعبر عن التفاعل على اساس انه ظاهرة اجتماعية ثقافية تتكون من ثلاث عناصر:

- الشخصية كفاعل.

- المجتمع باعتباره المجموع الكلي للمتفاعلين.

- الثقافة وهي المجموع الكلي للمعاني والقيم والمعايير الناشئة عن الشخصيات المتفاعلة. وبالتالي نبحث عن القيم من خلال تتبع الاشكال الثقافية اما (تالكوت بارسونز) فنجد في نظريته عن الفعل الاجتماعي تاكيده على ان الموجهات الدافعية او القيمية هي إحدى اركان الفعل الاجتماعي ومن ثم تتحقق القيم في ادوار وموجهات ومواقف، وهو ما يتضمنه الاطار المرجعي للفعل (20).

ضمن هذا الاطار السوسولوجي أثبتت في الدوائر العلمية مناقشات عديدة حول مفهوم القيم الذي استخدم في سياقات متباينة وتبلورت هذه المناقشات في شكل مداخل تنظيرية ومواقف تفسيرية لفهمه وتوظيفه في العملية التربوية مما شهد هذا الامر تراكما معرفيا هائلا اضفت عليه نوعا من التعقيد، تجسد في تعدد المقاربات النظرية والاجراءات المنهجية.

إن الاخذ بالمبدأ السوسولوجي الذي مفاده ان تحليل الظاهرة الاجتماعية ومعرفة اسباب حدوثها يستلزم الرجوع الى تاريخها والاطار الذي نشأت فيه، ذلك لانها لا تصدر من العدم ولا تنتشر في فراغ، وانما يؤكد وجود التاريخي.

هذا التصور استلهم منه اصحاب الاتجاه التاريخي في تحليل الظواهر الاجتماعية ومكونات الثقافة التركيز على البعد البنائي - التاريخي، ذلك ان تلك الظواهر صادرة عن مواقف انسانية، محكومة بظروف تاريخية، محاطة باطار اجتماعي وبالتالي فان القيم ما هي الا منتجات اجتماعية وتركيبات ثقافية، مرتبطة في ذات الوقت ببعدها الزمني وعلى هذا الاساس يرد اصحاب هذا الاتجاه القيم الى مبادئ الضرورة والفاعلية، فانطلقوا من



حتمية التاريخ الى دراسة العمليات الثقافية والصراعات التاريخية والاضاع التطبيقية، وتحليل الامكانات الموضوعية لسائر الطبقات من خلال صراعاتها وامالها ومخاوفها، تلك الامال والمخاوف التي تنبثق من ظروف وضعية يحددها السياق السوسيو تاريخي لذلك ليست القيم في التاريخ هي قيم اشياء، وانما هي قيم اشخاص حيث ان الانسان هو الكائن التاريخي الذي يضيف على سلوكه معناه ومغزاه كفاعل اخلاقي وكحامل للقيم وعلى هذا الاساس يرى اصحاب هذا الاتجاه ان القيمة هي قيمة الانسان الذي ينتمي الى ثقافة ، وقيمة السلوك حين يتطابق مع الارادة التاريخية . فالمثل العليا والنوايا والتضحيات وقيم الوفاء والنبالة والشجاعة والبطولة كلها امور نسبية متغيرة ، يحملها الانسان ككائن اجتماعي منخرط في زمرة او اسرة، كما تخضع بالطبع لحكم الزمن وتنفاد لمنطق التاريخ ( 21 ).

وفي هذا الاطار يعد (كارل منهايم K . Manheim ) الممثل الحقيقي للنزعة التاريخية في دراسة الظواهر وتحليل طبيعة القيم، حيث قدم رؤية ترتبط بالسياق السوسيو تاريخي، منتقدا في بداية الامر التفسير الماركسي وكذلك فكرة العقل الجمعي لدى ( دوركايم ) في تفسير طبيعة الظواهر الاجتماعية، حيث يدعو الى الرجوع الى منطق المواقف السوسيو تاريخية عند تفسير طبيعة كل قيمة او ظاهرة اجتماعية في المجتمع ، ذلك انه ينبغي الاخذ بفكرة المواقف الكلية عند النظر الى الانسان التاريخي في مشاركته في الحياة الاجتماعية واستجابته لها طبقا لانماط فكرية سابقة عليه، اذ يرتبط الانسان الاجتماعي بمواقف موروثه في الفكرة والعمل، ومن ثم تصبح القيم صورا اجتماعية منتزعة من الازواضع الاجتماعية والمواقف التاريخية المشخصة، فهي صور مجردة عن مادتها التاريخية ومحتوياتها الاجتماعية كما يؤمن ( منهايم ) بدناميكية العمليات التاريخية، أي بنسبية المواقف السوسيو تاريخية وصلتها الوثيقة بسوسولوجية المعرفة والفكر، وبالتالي تتغير القيم وتختلف المقولات باختلاف المواقف والظروف الاجتماعية، أي ان الافكار لا تنبثق الا عن طبيعة روح العصر، تلك الروح التي تتمخض عن سائر العمليات التاريخية والثقافية القائمة في البناء الاجتماعي ( 22 ) أما (ماكس شيللر M . SHeller)، فانه ينطلق ايضا في تحليله لطبيعة القيم من منطلق السياق السوسيو تاريخي، اذ يرى انه لا يمكن فصل القيم عن مواقف الحياة، فهي تلازم وتصاحب كل عمل وتحقق في كل فعل، بالتالي فهي تصدر عن بنية الواقع التاريخي لذلك يؤكد ( شيللر ) على مبدأ موضوعية القيم حين يرى ان الوعي بقيمة الأشياء هو بمثابة رد فعل انساني او حركة تبادلية بين عالم الأشياء ووجودها الواقعي من جهة، وبين عالم الذات وظروفها الاجتماعية من جهة أخرى وان القيم ليست صورا استاتيكية ثابتة على نحو ما زعم ( كانط ) وغيره من الفلاسفة المثاليين فالصورة المطلقة " للجمال " لا وجود لها بقدر ما يتحقق لنا في الواقع بعض اشكال حسية او مضامين متغيرة لصور جزئية تعبر عن معنى " الجمال " ، فما نسميه " بالجميل " انما يتغير بالطبع بتغير الظروف الاقتصادية والتاريخية والاحوال الاجتماعية والثقافية، بمعنى ان " الجمال " انما يعبر عن نفسه في صور تتحقق فيها مظاهر مختلفة ومتغيرة خلال سياق التاريخ (23).

تتجلى القيم على هذا الاساس في واقع فرد ملتزم بوضع معطى ،وبالتالي عند تحليلها يترتب علينا ان نلتزم الرجوع الى تاريخ مزدوج تاريخ الفرد وتاريخ المجتمع ، ذلك ان الانسان الحاضر له ماض معين، وان المشكلة التي تعترض سبيله انما تظهر له في لحظة معينة من لحظات سيرة حياته، ويبدو حلها لغيره في ثوب فعل وكأنه حلقة محددة متسقة من حلقات تاريخه الخاص، حلقة يكتنفها ماضيه من قبل ويتممها غده من بعد، وهذه الأفاق الشخصية الموقوتة تقع هي ذاتها في دائرة التاريخ الاوسع(24).

كما ترتبط فعالية القيم بالبعد الثقافي على اعتبار أن هذه الاخيرة تعد منتجات ثقافية، تصدر عن بنية الواقع الاجتماعي وهذا التوجه يعبر عنه ( بيترين سوروكين P. SOROKIN ) من خلال نظريته السوسولوجية التي مؤداها أن التفاعل الثقافي - الاجتماعي كوحدة ينبغي أن تحلل اليها الظواهر الاجتماعية ، ذلك أن التفاعل ينطوي على ثلاث مكونات مترابطة ترابطا وثيقا وهي :الشخصية باعتبارها موضوع التفاعل ، والمجتمع باعتبارها مجموع الشخصيات المتفاعلة ، والثقافة باعتبارها مجموع المعاني والقيم والمعايير الموجودة لدى الشخصيات المتفاعلة، وباعتبارها كذلك مجموع الوسائل التي ننشئ هذه المعاني وتجعلها إجتماعية (25).

ويضيف ( سوروكين ) ضمن هذا السياق أن البيئة الثقافية - الإجتماعية تؤثر تأثيرا كبيرا في تشكيل الشخصية، ذلك أن هذه الاخيرة هي عالم صغير يعكس العالم الكبير الثقافي - الاجتماعي الذي يولد فيه الفرد وينشأ في اطاره فحياة الفرد بمثابة دراما كبيرة تتحدد أولا من خلال عالمه الاجتماعي، ثم من خلال الخصائص البيولوجية لكيانه العضوي، وحتى قبل أن يولد الكيان العضوي يتدخل العالم الثقافي في التأثير على خصائصه وتحديدها ، ويظل ملتزما دون لين بعملية التشكيل حتى وفاة الفرد وبعد وفاته أيضا كما يؤكد "سوروكين " على الطبيعة التعددية لبناء الشخصية، فيعتبر تعدد الذات في داخل الفرد انعكاسا لتعدد الجماعات والانا الاجتماعية المتعددة للفرد الناشئة عن عضويته في جماعات مختلفة (26).

إنطلاقا من هذا التصور ، تؤكد الشواهد الميدانية والدراسات الحقلية على أن مقومات القيم انما تستند الى الاسس الثقافية ،كما يوجد ارتباط تبادلي (وظيفي ) بين القيم والانماط التربوية وطرقها المتميزة . فالنمط التربوي المستند يولد قيم العدوان والصراع ، أما النمط التربوي الممتز فانها تؤدي الى تحقيق قيم الطاعة.وعليه فان هذا التمايز في نمط التربية ومناهجها يؤدي بالطبع الى تمايز الشخصية داخل اطار ثقافة بعينها (27). إن القيم الإجتماعية والثقافية هي محددات اساسية لانماط السلوك في المجتمع ، ذلك أن حاجات الافرد ومصالحهم تتحقق فقط نتيجة لافعالهم الواعية عندما تصبح البواعث الخارجية دوافع لسلوكهم الاجتماعي ومن ثم فان هذه الحاجات والمصالح يجرى تثبيتها طبقا لاهميتها بالنسبة للمجتمع والافراد في صورة قيم اجتماعية تمثل بذاتها نموذجا محددًا للتفاعلات، مما يتيح للافراد التنبؤ بافعال مشاركين اخرين في العلاقات الاجتماعية وبناء سلوكهم الشخصي بما يتوافق مع ذلك وعليه ففي السلوك تتجسد القيم حيثما تقرها الجماعات وتنعكس في وعي الفرد وتصرفاته الفعلية من خلال تفاعله مع الافراد الآخرين والمحيط الاجتماعي بوجه عام (28).

ليس خاف على الدارس الاجتماعي أن النظريات الكبرى في مجال علم الاجتماع الغربي قد فشلت في استيعاب واقع الدول السائرة في طريق النمو، وذلك لأن هذه النظريات قد ظهرت في وسط اجتماعي مختلف تاريخيا وثقافيا واجتماعيا عن واقع المجتمعات السائرة في طريق النمو. كما ان معظم الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع قد أجريت في مناطق اوروبية وامريكية، ولذلك فان نتائجها قد لا تصلح للاستفادة منها في المجتمعات السائرة في طريق النمو وذلك نظرا لاختلاف الاطر الثقافية والاقتصادية والاجتماعية في تلك المجتمعات.

إن هذا القصور النظري ساعد على بروز اتجاه متميز في دراسة واقع المجتمعات، يعبر عنه أصحابه بالخصوصية التاريخية ويرون أن هذا التوجه يساعد على صياغة الاطرادات التي نكتشفها في مرحلة بعينها وينبه ضرورة عدم التعميم خارج حدود الفترة المدروسة والمجال المكاني المحدد للدراسة على اعتبار ان التنمية بمفهومها الواسع ترتبط بواقع بنائي معين ، تحكمه ضوابط وموجهات تتغير من فترة لآخرى . والى جانب ذلك يؤكد رواد هذا الاتجاه على ان مفهوم التنمية ينبغي ان يشتق من واقع البلدان السائرة في طريق النمو ، أي عدم الالتزام المسبق بمضامين هذا المفهوم الذي تداولته مختلف الدوائر العلمية والسياسية ، بل اتخاذ الواقع كاساس لتحديد محتوى العملية التربوية في اطار الخصوصية التاريخية التي تدعونا الى الالتزام برؤية عامة للمجتمع والتاريخ، ولهذا يهتم اصحاب هذا التوجه بدراسة عملية التنمية بمفهومها الشامل في ضوء رؤية واقعية - تاريخية تاخذ بعين الاعتبار كل المكونات البنائية في المجتمع (29).

من هذا المنطلق فقد اهتم انصار هذا الاتجاه بدراسة التنمية والقيم والعمليات التربوية في ضوء مفهوم الخصوصية التاريخية ، الذي يعطي اهمية كبيرة للتنوعات التاريخية القائمة بين فترات تاريخية مختلفة داخل المجتمع الواحد لهذا يركز رواد هذا الاتجاه على الدراسة الواقعية التاريخية لمكونات البناء الاجتماعي المعني وعليه فقد تزايد في السنوات الاخيرة الاهتمام بهذا الاتجاه الذي يربط نمط التنمية بالبناء الاجتماعي الذي يعكس انماطا متباينة من القيم ولقد قاد هذا الطرح الى محاولة:

- 1 - فهم واقع البلدان السائرة في طريق النمو في ضوء نسقها القيمي باعتباره محركا لعملية التنمية وليس معوقا لها.
- 2 - صياغة مفاهيم ومقولات نظرية تتماشى وواقع هذه البلدان.
- 3 - رفض النظريات الكبرى والتطبيق الميكانيكي لها على ابنية اجتماعية تختلف عن الابنية التي تطورت من خلالها هذه النظريات.
- 4 - فهم مكونات البناء الاجتماعي في ضوء رؤية تاريخية - واقعية.
- 5 - فهم تنميط تجسيديات السلوك الاجتماعي في ضوء تعددية القيم (30).

وتأسيسا على ذلك، فقد بينت الدراسات الحقلية التي اتخذت مسالك متعددة ورؤى نظرية متباينة الى انه من الحقائق المسجلة اليوم ان توجهات القيم تختلف من مجتمع الى اخر تبعا لدرجة تحضره وسرعة تطوره كما انه لا يمكن ان تتجسد فعالية القيم عمليا الا اذا تضافرت الجهود وتكاملت الادوار التي تقوم بها مختلف دوائر المؤسسات التربوية

باعتبارها وسائط ثقافية وواعية تربوية فالثقافة منظومة معرفية وسلوكية تجمع بين ما يصنعه الانسان ويسلكه، وان القيم تمثل جانبا رئيسيا من ثقافة أي مجتمع، بل تمثل جوهر الثقافة نفسها، لذلك فان الكثير من المعايير الاجتماعية يتم اكتسابها عن طريق العضوية ضمن جماعات رسمية او غير رسمية.

وفي هذا الاطار يرى ( هارتلي HARTELLI ) ان الاحتكاك بالاتجاه السائد في المنزل والجيرة والجماعات الاخرى هو الذي يقرر انماط معينة من الممارسات المحكومة بقيم ومعايير محددة.

من هنا يمكن القول أن التربية كعملية اجتماعية ثقافية تستمد قوتها من فعالية القيم وتستمد ضرورتها من ضرورة الوجود الاجتماعي للأفراد باعتبارهم حملة ثقافة المجتمع لهذا ينبغي النظر للثقافة بكل وسائطها على أنها الاطار المرجعي للتخطيط التربوي والوعاء الذي تستمد منه عملية التنشئة الاجتماعية اهداف مشروع المجتمع المرتبطة بالتنوعيات التاريخية لواقع حركية المجتمع وخصوصيته الثقافية.

لقد تجلت هذه الرؤية السوسولوجية في محاولة تحليل أهمية القيم وتبيان فعاليتها انطلاقا من تجسيد الفعل الاجتماعي وارتباطه بالعملية التربوية التي تكون محكومة بنمط قيمي معين، وهذا النمط بدوره يرتبط ارتباطا عضويا بالتنمية الشاملة. كما ان النسق القيمي للفرد يتسم بالمرونة والوظيفة، فهو يتشكل وفقا لواقع الفرد وامكانياته فكثيرا ما يتفكك هذا النسق ويعاد ترتيبه من جديد في ضوء التحولات الاجتماعية والفكرية الجديدة وما يحدث للنسق القيمي للفرد يحدث للنسق القيمي الاجتماعي باعتبار ان المجتمع امتداد للانسان الفرد لذلك فمتى كانت القيم الاجتماعية - الثقافية جامدة، فان العملية التربوية تواجه بمواقف تحول دون بلوغ الاهداف المنشودة.

لهذا يتم التأكيد على الاطار الاجتماعي للقيم وذلك بالنظر الى نمط الممارسات واهداف العملية التربوية، انطلاقا من أن العوامل الاجتماعية والثقافية لها أثرها الواضح في اكتساب القيم ومن ثم فان التربية هي عملية تحقيق القيم، لان القيمة هي علاقة قائمة بين الذات والموضوع، لأن الذات تنجذب بدافع القيمة نحو موضوع معين بقصد ايجاد عملية تكييف وتوازن.

من هذا المنظور اصبحت الدراسات الاجتماعية - التربوية الحديثة تتناول حركية الانساق القيمية وتطورها في ضوء الخاصية التاريخية والاطار الثقافي للكشف عن طبيعة العلاقة بين مختلف الانساق المكونة للبناء الاجتماعي للمجتمعات السائرة في طريق النمو باعتبار ان التربية كعملية اجتماعية تتضمن حركية موجهة، وان تحليلها النهائي هو مجهود قيمي مخطط يستهدف تحرر المجتمع من كثير من القيود وغرس ما هو مرغوب فيه اجتماعيا.

### المراجع المعتمدة

- 1 - محمد علي محمد واخران، المجتمع والثقافة والشخصية، القاهرة دار المعرفة الجامعية ، 1983، ص 349

- 2 - Williams R. M., The concept of values, international encyclopedia of the DC Sills ., N.Y .,1968, P . 283.
- 3- الربيع ميمون، نظرية القيم في الفكر المعاصر بين النسبية والمطلقية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1980، ص 30.
- 4- A. Lalande, vocabulaire technique et critique de la langue philosophique, Paris : P. U. F., 1968, p 1148.
- 5- مختار حمزة ، اسس علم النفس الاجتماعي، جدة: دار المجتمع العلمي 1979، ص ص 155 - 156
- 6- محمد علي محمد واخران، المرجع السابق، ص ص 249 - 250
- 7- محي الدين احمد حسين، القيم الخاصة لدى المبدعين، القاهرة: دار المعارف، 1981 ص 41.
- 8 - فؤاد ابو حطب، " العلاقة بين اسلوب المعلم ودرجة التوافق " في كتاب لويس كامل مليكة، قراءات في علم النفس الاجتماعي في الوطن العربي ، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب 1979، ص ص 228 - 229
- 9 - أحمد مصطفى خاطر، الخدمة الاجتماعية وتنمية المجتمع الريفي، الاسكندرية، المكتب الجامعي الحديث 1990، ص ص 104 - 105
- 10- فوزية نياض، القيم والعادات الاجتماعية، القاهرة، دار النهضة العربية 1980، ص 73
- 11 - محمد احمد بيومي، علم اجتماع القيم، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية 1981 ، ص 162.
- 12 - عيد الباسط محمد عبد المعطي، غريب سيد احمد، البحث الاجتماعي، الاسكندرية، دار الكتب الجامعية 974 ، ص ص 175 - 177.
- 13- Nicholas Risher, introduction to value theorie, . N.J. Englewood Cliffs, 1969, PP. 13-19.
- 14- احمد مصطفى خاطر، المرجع السابق، ص ص 107 - 108
- 15- Dewitt H. Parker, The philosophy of valu , an Arbor V. M. Press, 1957, PP. 104-116 .
- 16- جابر عبد الحميد، التعليم الجامعي في العراق وتغيير القيم، المجلة الاجتماعية القومية المجلة 5 العدد، 1968، ص 4.
- 17- Von Otto Mering, A grammar of human value, Pittsburg Press, 1961, PP. 63-64.
- 18 - احمد مصطفى خاطر، المرجع السابق، ص ص 111 - 112
- 19 - نفس المرجع، ص ص 112 - 113
- 20 - نفس المرجع، ص ص 113 - 115
- 21 - قباري محمد اسماعيل، علم الاجتماع والايديولوجيات، الاسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1978، ص ص 74 - 75.
- 22 - نفس المرجع، ص ص 430 - 435 .
- 23- Ncholas Risher, op. cit., PP. 58-62 .
- 24-Raymond Avon, La sociologie allemande contemporaine, Paris, Ed. Alcan, PP. 95 97.
- 25 - نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهري واخرين، القاهرة ، دار المعارف 1982 ص 345 .
- 26 - نفس المرجع السابق ص ص 345-351 .
- 27 - قباري محمد اسماعيل، قضايا علم الاخلاق، الاسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1978، ص ص 184 - 185 .
- 28 - اوسيبوف، أصول علم الاجتماع، ترجمة سليم توماس، دار التقدم 1990، ص ص 97 - 99

- 29 - أحمد زايد ، النبء السباسب فب الربف المصرب؁ القاهرة؁ دار المعارف 1981؁ ص ص 206  
- 211.  
30 - نفس المرجع؁ ص ص 212 - 213.